

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ
تُنَجِّيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ . تُوْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرِسُولِهِ
وَتَجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ
ذَلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . يَغْفِرُ لَكُمْ
ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلِكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ . وَأُخْرَىٰ تَحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ
قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿

« صدق الله العظيم »

[الصَّف : الآيات ١٠ - ١٣]

حديثنا هذه المرة عن الجهاد والقتال في سبيل الله أو دفاعاً عن دار الإسلام
وآيات الجهاد في القرآن الكريم كثيرة ، لأن الجهاد ركن من أركان هذا الدين ،
وقد جئت بالحديث عن الجهاد بعد أن تحدثنا عن العبادات الإسلامية الأربع :

الصلاة والزكاة والصيام والحج إلى بيت الله الحرام ، لأننا سنرى أن الجهاد فرض مكتوب على كل مسلم ، وأنه فرض عين لا فرض كفاية ، والأمر هنا لا يقتصر على الجهاد لنشر الدين أو القتال ذوداً عن حوض الملة ، ولأن القتال للدين والوطن والكرامة فيه عزة وسمو بنفس المؤمن لا يتيسران بدونه . فإن من أكبر ماضر أمة الإسلام مذهب بعض الفقهاء في أن الجهاد فرض كفاية تنوب فيه القلة عن الغالبية ، لأن هذا المذهب حرم المسلمين من شرف الدفاع عن دار الإسلام وديارهم ، وجعلهم رعية مستذلة لحكام أراذل يعتمدون على جند مرتزقة ملاعين وسننصل الأمر في ذلك تفصيلاً .

وقد اخترت الآية التي تراها في رأس هذا الفصل ، لأنك ترى أن الله سبحانه قرن بين الإيمان بالله ورسوله والقتال في سبيل الله دون ذكر لصلاة أو صيام أو أى فرض آخر ، لأنه سبحانه أراد هنا أن يبين أن الجهاد فرض واجب يلزم كل مسلم ، مثله في ذلك مثل أى عبادة أخرى من المفروضات ، فكما أن على المسلم أن يصلى ويزكى ويصوم ويحج فإن عليه أن يجاهد في سبيل دينه ، وإن يكون دائماً على الأهية للقيام بهذا الفرض العظيم الذى تتوقف على القيام به حياة الأمة عزيزة قوية ، والأمة القوية العزيزة أمة شريفة نشيطة عاملة محسنة عالمة تسير مع أمم الطليعة على هذا الكوكب .

وقبل أن أسترسل مع هذا الحديث أحب أن أنبه إلى ما تتضمنه هذه الآيات من بلاغة قرآنية معجزة ، فأنت ترى هنا أن الله سبحانه يعبر عن دخول الدين بلفظ تجارة ، وهو سبحانه يأخذ هنا اللفظ العادى ويرتفع به فيعطيه معنى شريفاً ، فالإسلام هنا صفقة عدل ، أو هو موثق بين الله وعبده ، فهو يدخل الدين عن إيمان صادق ويجاهد في سبيل الله بهاله ونفسه ، وهو يفعل لنفسه بذلك خيراً عظيماً ، ولكن الله يزيده على ذلك نعمة كبرى ، فهو يغفر له ذنوبه ويدخله جنات تجري من تحتها الأنهار ويهبه مساكن طيبة في جنات عدن ،

وذلك في ذاته هو الفوز العظيم . . لا يقف هنا كرم الله بل إنه يعد المؤمن بالنصر من الله والفتح القريب .

والجهاد في كل آيات القرآن فرض على المسلم ، واقرأ الآيات التالية :

﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة / ٩ / ١١١].

فهنا ترى بكل وضوح أن الجهاد في سبيل الله فرض لازب ، وأنه جزء من موثق المؤمن مع الله ، وهذا الموثق الذي يبيع الإنسان فيه نفسه في سبيل الله ويقاثل فيقتل أو يقتل ، فيفوز في مقابل ذلك بالجنة ، وهي فوز له عظيم . فليستبشر المؤمنون بهذا الميثاق الجليل مع خالق الكون سبحانه .

ولكى ترى أن الجهاد فرض عين يلزم المؤمنين جميعاً اقرأ هذه الآيات :

﴿ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرْمٌ . ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ فَلَا تَظْلَمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ .

[التوبة / ٩ / ٣٦] .

فهنا ترى أن علينا كافة أن نقاتل المشركين كما يقاتلوننا كافة .

وقوله تعالى ﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقِيمُ ﴾ يفسره ابن كثير ومحمد فريد وجدى بأن تحريم القتال في الأشهر الحرم هو الدين العظيم ، وقد يكون هذا هو المراد ولكنه في رأبي ليس كل المراد ، فإن السياق يدل على أن المراد بالدين القيم هنا الدين

النائم أبد الدهر الذي يعزه الله بأهله وبالجهاد الدائم في سبيله ، وبمراعاة قانون الجهاد فيه ، ومن هذه القواعد مراعاة الأشهر الحرم ، وإيقاف القتال فيها إذا سمحت ظروف الحرب بذلك ، لأن السنة كلها لا يمكن أن تكون جهاداً للمسلمين فلا بد لهم من فترة راحة واستعداد وتدبير ورسم خطط .

واقراً هذه الآيات من سورة آل عمران وهي تدور حول موقعة أحد :

﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ النِّقْيِ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبِعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاتَّهَّ اللَّهُ بِمَا يَكْتُمُونَ . الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أِطَاعُونَا مَا قَاتَلُوا قُلُوبُهُمْ فَادْرَأُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ . فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ .

[آل عمران ٣ / ١٦٦ - ١٧٠] .

وهانا معان عظيمة تكشف عن مرادات الله سبحانه من أمته . فالجهاد فرض على المسلم . والنكوص عنه كذب وضعف ونفاق ، بل إن الناكص عن الجهاد أقرب إلى الكفر منه إلى الإيثار ، وعود الإنسان عن الجهاد لا يدراً عنه الموت ، وعود الإنسان عن القتال في سبيل الله مصادرة لقدرة الله في الأجل . ثم تجيء بعد ذلك الآية التي تقول إن الذين قتلوا في سبيل الله ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، وهذا كلام صدق يفسه الله في الآيات التي تلي هذه الآيات ، فإن الذين يستشهدون في سبيل الله يذهبون إلى جنات عرضها السموات والأرض وهم في نفس الوقت يؤمنون سلامة الأمة ، ولذلك فهم يستبشرون بالذين لم

يلحقوا بهم في الشهادة وبقوا خلفهم ، فهؤلاء استسمر عن طريقهم حياة الأمة ، وهم بشهادة من سبقوهم آمنون لا خوف عليهم ولا يحزنون ، وهم يقون مستعدين للقتال والجهاد إذا دعا الداعي ، فامة الإسلام لابد لها أن تكون على أهبة القتال معاشرت ومابقى زمان .

وإذا كنا نتخذ رسول الله ﷺ قدوة لنا ونعتبر تصرفه سنة نتبعها ، فلنتظر في حياته الشريفة ، ونرى موقفه من الجهاد ، فنرى أنه منذ استقر به المقام في المدينة وقامت أمة الإسلام من حوله بدأ بعملية طويلة ، أول غاياتها توسيع وطن الأمة بإدخال الناس وأوطانهم فيها ، لأننا عندما نقول إن رسول الله بمجرد استقراره في المدينة وعقد الميثاق بين المهاجرين والأنصار ومن لحق بهم وجاهد معهم من اليهود ، أرسل عبد الله بن جحش في سرية كبيرة إلى بلد قبيلة جهينة ، وكانت من أكبر وأقوى القبائل القضاعية النازلة في الحجاز من ينبع جنوباً إلى ذى خُشب قرب تيباء شمالاً ، فمضى عبد الله في قوة كبيرة ونزل بأرض جهينة وسارع للاتصال به مجدى بن عمرو رئيس جهينة ، فطلب مجدى إلى عبد الله بن جحش أن يعطى رسول الله الجهنين موثقاً « نأمنك به وتأمنا » فأوثق لهم رسول الله الموثق الذى طلبوه ، وعاد عبد الله إلى المدينة ولم يسلم الجهنيون هذه المرة ، ثم وفد مجدى على رسول الله في المدينة فجاه وأكرمه ، ويظهر أن مجدى ومن معه أسلموا حينذاك لأننا سنجد بنى جهينة بعد ذلك مسلمين ، وبعد إسلام جهينة أصبحت أراضيها جزءاً من وطن أمة الإسلام ، وليس معنى ذلك أن المسلمين امتلكوها ، بل المعنى أن منازل الجهنين ظلت لهم ولكن المسلمين أصبحوا مسئولين عن سلامتها ، وأصبح مجدى بن عمرو وبقية الجهنين مواطنين في أمة الإسلام ، بدليل أن رسول الله ﷺ قال لمجدى : هل أقطعك ينبع ! ورسول الله لا يستطيع أن يقول هذا إلا إذا كانت أرض جهينة أرضاً إسلامية ، ورسول الله أراد أن يختصه ينبع . فقال مجدى ، إني رجل قد كبرت سنى فأقطعها لابن أخى

وكان معنى ذلك أيضاً أن أرض بنى جهينة أصبحت أرضاً محرمة على قريش وقوافلها ، بدليل أن رسول الله عندما خرج في غزوة بواط لمح اعوجاجا في سلوك مجدى وأحس فيه ميلاً إلى مواصلة العلاقات الطيبة مع قريش ، فقال له : أتريد أن ننبذ إليك ! أى أحب أن نقطع العهد الذى بينك وبيننا ؟ فقال مجدى : لا حاجة بنا إلى قتالك . وكل ذلك حدث في العام الأول للهجرة .

ومن ذلك الحين بدأ رسول الله يخرج في غزواته ويرسل سراياه بمعدل اثنين تقريباً في الشهر ، لأن أكبر غاياته كان تحويل أمة المسلمين كلها إلى جيش مجاهد فلم يدع مسلماً قادراً على القتال إلا خرج في سرية أو غزاة .

ومن سرية سيف البحر التى قادها عمه حمزة بن عبد المطلب في رمضان سنة ١ هـ / مارس ٦٢٣ م . إلى سرية نخلة التى قادها عبد الله بن جحش في رجب سنة ٢ هـ / فبراير ٦٢٤ م . وهى الثامنة من مغازيه ﷺ وهى السابقة على بدر والمهدة لها ، كانت أمة المدينة قد دخلت فعلاً في التحول إلى أمة جيش أى أمة مجاهدة ، ثم كانت بدر الفاصلة في ١٩ رمضان ٢ هـ / ١٥ مارس سنة ٦٢٤ م . وهى التى اشترك فيها المهاجرون والأنصار وبعض القضاعيين في القتال لأول مرة ، وبها بدأ السير الحثيث في طريق الجهاد ، ولم يترك رسول الله عضواً من أعضاء الأمة إلا أعطاه فرصة القتال والتدرب عليه ، وأصبح الجهاد في سبيل الله والإسلام جزءاً أساسياً من واجبات كل مسلم قادر على القتال ، فلما كانت غزوة تبوك (رجب - رمضان سنة ٩ هـ / أكتوبر - ديسمبر سنة ٦٣٠ م) ونزلت بعدها سورة براءة وهى سورة التوبة أيضاً ، تقرر فيها أن القتال أصبح فرضاً واجباً على كل مسلم ، ويعاقب من يتخلف عنه أو يتهاون في أمره أو ينافق فيه . ولا مجال للقول بعد أن نزلت سورة التوبة بأن فرض القتال قد نسخ ، لأن سورة التوبة بإجماع معظم علماء القرآن كانت آخر ما أنزل على رسول الله من سور القرآن الكريم .

فلنقف لحظات عند سورة التوبة .

ولكى نفهم سورة التوبة حق الفهم . ونضع أيدينا على ماتضمه من الحكم والمواعظ والمعاني الجليلة ، نقول كلمتين عن غزوة تبوك التى سبقتها ، وقد بدأت آيات سورة التوبة تنزل على رسول الله وهو عائد من تبوك ، وسورة التوبة على أغلب الأحوال هى آخر ما نزل على رسول الله من سور القرآن ، فأحكامها قائمة سارية إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها ، إذ لا يمكن القول بأن الله أنزل بعدها ما ينسخ بعض أحكامها .

تبوك هى الرابعة والثمانون من مغازى رسول الله ﷺ وقد خرج بها رسول الله فى رجب وعاد فى رمضان سنة ٩ للهجرة / أكتوبر - ديسمبر ٦٣٠ م ، وهى تسمى ضمن عدد من المغازى قام بها رسول الله أو أرسلها إكمالاً لتوحيد الجزيرة تحت راية الإسلام وقضاء على ما بقى ناشزاً من القبائل ، مع الاهتمام الخاص بشمال الجزيرة وحدودها مع الروم ، وكانت تسكن هذه الحدود وفى دواخل الشام قبائل تنصر معظمها ودخل فى جملة ما يسمى بعرب الروم أو نصارى العرب أو عرب الضاحية ، ضاحية قضاة ، وهى قبائل عربية كانت تسكن على وجه التقريب ما يعرف الآن بأراضى المملكة العربية الهاشمية .

ويبدو أن رسول الله ﷺ كان يمهد فى ذلك الحين للخروج بالإسلام إلى خارج الجزيرة ، فنحن الآن فى العام التاسع للهجرة وهو عام الجماعة ، والوفود تقبل على المدينة وتعلن انضمام قبائلها إلى أمة الجزيرة ، ثم إن رسول الله ﷺ لم ينس ما وقع للمسلمين فى مؤتة بأرض البلقاء جنوبى البحر الميت قبل ذلك بعام فاستقر رأيه على أن يسير بالمسلمين إلى تبوك .

وكان رسول الله قد قرر القيام بهذه الغزوة البعيدة ليختبر أمة الإسلام ويعجم عودها ويدربها على القيام بالأعمال العسكرية الكبيرة العسيرة ، وفى

تقدير الحق سبحانه أن تكون هذه الغزاة تمهيداً لتشريعات وتوجيهات أساسية بالنسبة لحياة الأمة ومستقبلها ، وإذا كانت غزوة تبوك هي المحنة أو الامتحان ، فإن سورة التوبة وهي براءة هي نتيجة الامتحان ، وهي نتيجة حافلة بالتشريعات والتنظيمات والتوجيهات للمسلمين عليهم طاعتها والعمل بها حتى يطوى الله الأرض وما عليها ، وقد أوحى الله إلى رسوله بأن يحتفل بهذه الغزاة أعظم الاحتفال ويعد لها ما استطاع من قوة ومن رباط الخيل ليرهب عدو الله وعدو الإسلام ، فأعلن الرسول عن وجهته ودعا أهل المدينة جميعاً ومن حولها من الأعراب للاشتراك في الغزاة ، وتطوع القادرون بالمال والسلاح ، وجاءت النساء بالمصوغ وبسطة ملاء خارج حجرة السيدة عائشة ليضع فيها القادرون ما يريدون التبرع به .

واجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثون ألف مقاتل فيهم عشرة آلاف فارس ، وتخلف عن رسول الله ناس وقعد عن الخروج ناس دون عذر ، وكانت قد بلغت رسول الله أنباء عن استعداد الروم وجمعهم قوة عظيمة للمسير لحرب المسلمين ، ولكن رسول الله عندما وصل إلى تبوك تبين له أن هذه الأخبار غير صحيحة ، فتلبث عند تبوك حتى أتاه عدد من قبائل عرب الروم مسلمين وانحاز بعضهم إلى الروم ، وأرسل رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في قوة أدخلت اكيدر صاحب دومة الجندل في طاعة الإسلام ، وعاد الجيش الجرار إلى المدينة ، وقد عانى الناس أهوالاً في الذهاب والعودة ، فقد كان الوقت نهاية الخريف وبداية الشتاء والأراضي لا زروع فيها ، وكانت الحرارة إلى جانب ذلك شديدة في بعض الأيام ، وقلت الأقوات والمياه في مناسبات كثيرة ، ولهذا وصفت غزاة تبوك بأنها غزوة العسرة . وقد كانت نتيجة استسلام دومة الجندل أن استسلمت بعد ذلك أبله على طرف خليج العقبة ، واستسلمت تيماء وجربا واذرح ثم مقفا على البحر الأحمر .

يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ . إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ . وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عِدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ . لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَا أُضْعَفُوا خَلَالَكُمْ بِبِغْيَانِكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿ التوبة ٩ / ٣٨ - ٤٧ ﴾ .

هذه آيات بينات تبين دون أدنى شبهة أن الجهاد فرض عين ، وأن كل مؤمن قادر على القتال مكلف بالخروج والاستعداد للجهاد في سبيل الله ، وهذا الاستعداد ينبغى أن يكون صادراً من داخل النفس ، فلا يتوقف لزومه على أمر أو رغبة رئيس يدعو للخروج عندما يريد ويأمره بالعودة عندما يريد . لأن هذا داعى الجهاد في سبيل الله لا في سبيل إنسان أو وجه غير وجه الله ، والجهاد المفروض هنا ينبغى أن يكون بالنفس والمال ، فيجود الإنسان بنفسه وماله في سبيل الله عن نفس راضية ، أما إذا خرج الإنسان للجهاد عن غير إيمان أو رغبة صادقة فلا خير في جهاده ، لأنه في الحقيقة غير مؤمن إيماناً صحيحاً ، لأن الجهاد والجود بالنفس والمال في سبيل الله هو الدليل البين على الإيمان ، وهل هناك أعز على الإنسان من نفسه وماله ؟ فإذا هو كان على استعداد للجود بهما عن رغبة صادقة فهنا يكون الإيمان الصحيح ، وهنا يكون الجهاد عظيم القيمة . هنا تغلب الفئة القليلة الفئة الكبيرة بإذن الله .

ومن غريب الأمر أن المقاتل الصادق المقبل على الجود بنفسه نادراً ما يقتل ، إنما الذى يقتل ويصاب هو الجبان المتردد الذى يخرج للجهاد مكرهاً ، ومن أكبر الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخسروا في معركة حنين - وكان عددهم فيها فوق العشرة آلاف - إلا أربعة شهداء ذكرهم المؤرخون بالاسم . وحين كانت من المعارك العسيرة التى خاضها المسلمون تحت راية رسول الله ﷺ فقد طالت

ساعات أو بدأت في وادى حنين ثم استمرت في سهل أوطاس وانتهت قرب المغيب .

ونحن مأمورون أن نفر خفافاً وثقالاً . أى سواء أكان علينا سلاح خفيف أم ثقيل ، لأن الأسلحة لا تنتصر بنفسها ولكنها تنتصر بالناس ، وفي أيامنا هذه التى نتصور فيها أن المسألة مسألة سلاح تنتصر جماعات صغيرة مجاهدة في سبيل قضايها عن إيمان ، على أمم ضخمة السلاح والعتاد . وإذكروا كيف انتصر الجزائريون بالسلاح الخفيف على الفرنسيين ومعهم سلاح الدنيا ، وانتصر الملك عبد العزيز آل سعود على قوى تفوق قواته بكثير بقوات قليلة وسلاح أقل ، وانتصر أهل فيتنام على الفرنسيين في ديان بيان فو ثم على الأمريكين ، وانتصر المصريون والسوريون على إسرائيل في حرب أكتوبر ١٩٧٣ ولدى إسرائيل ترسانة رهية من الأسلحة وراها ترسانة أضخم هى ترسانة الولايات المتحدة .

والله سبحانه يعتب على رسوله أن أذن في التخلف عن الخروج إلى تبوك لنفر سألوه الإغفاء . وتعللوا بتعلات واهية ، وكان لابد أن يتركوا لأنفسهم حتى يتبين له البذين صدقوا والكاذبين ، ومجرد استئذانهم دليل على ضعف إيمانهم وشاهد على أن في نفوسهم ريباً فهم في ريبهم يترددون . وعدم خروج هؤلاء أفضل لأنهم يضعفون قلوب المجاهدين .

فهل يبقى بعد ذلك شك في أن الجهاد فرض عين ؟

إن الإنسان ليتعجب كيف لم يجمع الفقهاء على فرضية الجهاد .

حقاً إن هناك آية تقول ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة ، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [التوبة ٩ / ١٣٢] . وهذه الآية لا تبيح لأى من المؤمنين أن يقعد عن الجهاد لأن القتال فرض ، ولكن تنفيذه لابد أن يتم على نظام ، فليس

من الممكن أن ينفر كل المؤمنين في كل حين ، لأنه لا بد أن يبقى في الوطن من يسير أموره ويمد المقاتلين بالزاد والعتاد ، وإيها المطلوب أن يخف للقتال من عليه الدور حسب نظام يضعه المشرفون على مسائل الدفاع في الأمة ، وها نحن أولاء اليوم جعلنا الخدمة العسكرية إجبارية على جميع المواطنين وكل منا يقوم بالخدمة العسكرية لفترة معينة ثم يعود إلى حياته العادية ، وفي معظم بلاد الدنيا يعود المواطن إلى الخدمة العسكرية فترة قصيرة كل عام لكي يتدرب على الآلات المستخدمة ثم لكي لاتموت في قلبه حماسة القتال والرغبة في المشاركة في شرف الدفاع عن الوطن .

واقراً قول الحق سبحانه :

﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهَا مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْنُونَ مَوْطِئًا يُغَيِّظُ الْكُفَّارَ وَلَا يِنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيَالًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كَتَبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة ٩ / ١٢٠ - ١٢١] .

ومن أغرب ما قرأت عند بعض المفسرين أن يقولوا إن هذه الآيات خاصة برسول الله وعصره والأعراب الذين كانوا ضاربين حول المدينة . وهؤلاء يغيب عنهم أن رسول الله هنا هو رمز الإسلام ، فالمجاهدون في الحقيقة لا يجاهدون في سبيل رسول الله بل في سبيل الإسلام ، أما الأعراب حول المدينة فكل أمة الإسلام في منزلة الأعراب حول المدينة ، فالحكم هنا قائم أبد الدهر .

أندرى أن عدم إصرار أهل الفقه جميعاً على فرضية الجهاد كان من أكبر أسباب تدهور الدول الإسلامية وتأثيرها ؟ .

فإن ذلك فتح أمام الحكام باب استخدام الجند المرتزق ، فدرجوا عليه من بداية الدولة الأموية ، ومعاوية بن أبي سفيان جعل الأعراب المجاهدين جنداً مرتزقاً يحاربون في سبيله وسبيل دولته ، فقتل في نفوسهم عرق شرف الجهاد ، وجعل يضع في يد الأعرابي المرتزق مائة دينار ويسلطه على المسلمين من أعدائه فيضع فيهم السيف ، وجاء ابنه يزيد فوضع في يد الأعراب نفس المال وأمرهم بقتل الحسين وآله فساروا وقتلوا الحسين ومن معه من آل البيت ، وجاء مروان بن الحكم فسلط مسلم بن عقبة المري على الحرم الشريف ومدينة الرسول ﷺ فسار إليهما وفعل بهما ما لم يفعله كافر قط .

ونتيجة لذلك أخرجت أمة الإسلام من ميدان الشرف ، وتسلط عليها الجبابرة بالجند المرتزق ، وقد وفق الله سبحانه رسوله في تحويل أمة الإسلام إلى جيش مجاهد في سبيل الله وبعث فيهم بذلك عزة ونخوة وقوة ، فجاء هؤلاء المفسدون فأخرجوا الأمة من ميدان الجهاد بل استخدموا الجند المرتزق في إذلال الأمة ، وعلى هذا درجت كل دول الإسلام ، فكانت كلها دول ظلم وإذلال وخروج عن شرع الله ، والعباسيون الذين أخرجوا العرب من ميدان الشرف واعتمدوا على الجند الإيراني ثم التركي المرتزق ، جاء عليهم يوم أصبحوا فيه أذل من الكلاب بين أيدي الجند المرتزق .

إن الجهاد في سبيل الله والوطن يبعث في النفس العزة والشهامة والشعور بالكرامة ، والأمة التي تراها اليوم فائدة وسيدة وصلت إلى ذلك عن سبيل القتال في سبيل أديانها وأوطانها ، ومن العزة والشهامة والكرامة تنبع كل فضيلة وكل ميزة عقلية أو نفسية ، فهذه الأمة نفسها هي التي تقود في ميدان العلم والفكر والاختراع والمال .
